موقف دولة الموحدين من فقهاء المالكية - الدوافع والخلفيات

تواتي حسين
طالب دكتوراه قسم التاريخ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

ملخص:

نعالج في هذا الموضوع الموسوم بـ: " اضطهاد الموحدين لفقهاء المالكية – الدوافع والخلفيات – الأسباب الظاهرة والأسباب الخفية التي دفعت بالموحدين إلى التضييق على المذهب المالكي واضطهاد فقهائه ،مع تسليط الضوء على شخصية المهدي بن تومرت واضع مذهب الموحدين ،وعلى الخطوط العريضة لهذا المذهب ،وكذا مكانة فقهاء المالكية في دولة المرابطين.

Résumé :

Nous aborderons dans ce sujet intitulé « Le persécution des savants Malikites par les Mowahides – les causes et les origines – Motifs apparents et cachés qui a poissé les Mowahides à exercer des restrictions vis-à-vis des Malikites et ses savant ,tout en mettant la lumière sur la personnalité de El-Mehdi Ibn Toummert concepteur de la doctrine Mowahides ainsi que les grandes lignes de cette doctrine ,et les places qu'occuppait les savants Malikites chez les Moravides.

مقدمة

تأسست دولة المرابطين (449 – 541هـ/ 1057- 1146م) على أساس فكرة دينية اصلاحية تزعمها الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي.[1] بمنطقة السوس الأقصى التي قدم إليها رفقة يحي بن ابراهيم

الهوامش:

([1]) عبد الله بن ياسين الجزولي،عرف بالعلم والتقوى والورع والسياسة وهو من حذاق طلبة ابن زللو ،قتل سنة 451هـ في معركة مع قبيلة برغواطة. ينظر في ذلك: القاضي عياض اليحصبي السبتي ،ترتيب المدارك وتقريب المسالك ،تح أحمد بكير محمود ،مج2 ،مكتبة الحياة ،بيروت ،1967 ،ص 781 ؛مؤلف مجهول،الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح سهيل زكار وعبد القادر زمامة ،دار الرشاد الحديثة ،الدار البيضاء ،1979 ،ص 2 ،ابن أبي زرع علي بن عبد الله الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط2 ،المطبعة الملكية، الرباط ،1999 ،ص 150.

الجدالي[1] زعيم قبيلة صنهاجة التي تضم جدالة ومسوفة ولمتونة سنة 427هـ/1036م[2] ليفقه قومه في الدين ،بعد أن زكاه له الفقيه وجاج بن زللو اللمطي وكان يحيى بن ابراهيم الجدالي مصدر الأمان لعبد الله بن ياسين الذي انتقل من مرحلة التعليم ودعوة الناس بالحسنى إلى مرحلة التشدد في تطبق الحدود في أوساط صنهاجة،وهذا ما خلق له الكثير من المعارضين خاصة من جدالة الذين قاموا بطرده وهدم داره بعد وفاة يحيى بن ابراهيم ،فالتجأ إلى قبيلة لمتونة واستجار بشيخها يحيى بن عمر اللمتوني الذي اتجه رفقته ومعهما نفر من لمتونة إلى رباط عند مصب نهر السنغال متفردين للعبادة فتوافد الناس عليهم حتى قارب عددهم الألف ،فقرر عبد الله بن ياسين الخروج من عزلته لنشر دعوته الاصلاحية الرامية إلى تطهير الدين مما علق به من تحريف وخرافات ،وهكذا تأسست النواة الأولى لدولة المرابطين التي تولى زعامتها السياسية بعد وفاة يحيى بن عمر أخوه أبو بكر بن عمر اللمتوني والذي تنازل عنها لابن عمه يوسف بن تاشفين. وقد تأست دولة المرابطين على عقيدة أهل السنة ومذهب الامام مالك[3]،و استمرت تحكم بلاد المغرب الأقصى والأوسط والأندلس على ذلك حتى ظهر أمر الموحدين بزعامة المهدي بن تومرت فقضوا عليها وعلى المذهب المالكي وعملوا على نشر مذهب ابن تومرت في ربوع بلاد المغرب والأندلس التي دخلت بعد ذلك في صراع مذهبي بين أنصار ابن تومرت والفقهاء المالكية الذين عانوا كثيرا من اضطهاد خلفاء الموحدين.

فما هي عقيدة المهدي بن تومرت ؟ وما هي دوافع محاربة خلفاء الموحدين للمذهب المالكي واضطهاد فقهائه ؟وما هي خلفيات ذلك ؟

وللإجابة على هذه التساؤلات وغيرها ارتأينا أن نقسم بحثنا هذا إلى العناصر التالية:

([1]) حين عودته من الحج عرج يحيى بن ابراهيم الجدالي على القيروان وطلب من شيخها أبي عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي أن يندب له من يفقه قومه ،فأرشده إلى أحد تلامذته بالسوس وهو وجاج بن زللو اللمطي الذي أرشده بدوره إلى عبد الله بن ياسين الجزولي.ينظر في ذلك: عبد الرحمن بن خلدون ،كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ،تح خليل شحادة ،ط1 ،دار الفكر ،بيروت ،1981 ،ص 142 ،143 ؛ابن أبي زرع ،المصدر السابق ،ص ص 154-156 ؛السلاوي الناصري ،الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ،ج2 ،تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ،دار الكتاب الدار البيضاء، 1997 ،ص 6 ،7 ؛ابن عذارى أبو العباس أحمد المراكشي، كتاب البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ،تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد ابن تاويت، محمد زنيبر و عبد القادر زمامة، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1985 ،ص 7 ،8.

([2]) عن قبائل صنهاجة ،ينظر: العبر ،ج6 ،ص 201 ،202.

([3]) عن تأسيس دولة المرابطين ينظر: عبد الحميد حاجيات وآخرون ،الجزائر في التاريخ ،ج3 ،العهد الاسلامي ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1984 ،ص ص 292-296 .

1- التعريف بمذهب الموحدين من خلال التعريف بواضع أسسه المهدي بن تومرت ،وبعقيدته .

2- التعريف بمكانة فقهاء المالكية في الدولة المرابطية حتى يتسنى لنا استنتاج خلفيات اضطهاد الموحدين لهؤلاء الفقهاء.

3- دوافع وخلفيات اضطهاد الموحدين لفقهاء المذهب المالكي.

أولا: مذهب الموحدين. [1]

1- التعريف بالمهدي ابن تومرت:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله تومرت من قبيلة هرغة البربرية ،ينسبه بعض المؤرخين إلى آل البيت من جهة الحسن بن علي كرم الله وجهه ،ومن بينهم ابن القطان[2] وابن خلدون[3] ،وابن خلكان[4] ،بينما يرى ابن أبي الزرع [5] ،وابن عذرى[6] أنه نسب ادعاه لنفسه ،وهذا ما ذهب إليه عبد الله عنان حين ذكر أن هذا نسب باطل انتحله المهدي بن تومرت ليدعم به صفة المهدوية التي ادعاها[7] .

([1]) تأسست دولة الموحدين سنة 524 هـ/ 1129 م على يد المهدي بن تومرت في شكل دعوة دينية وفكرة روحية تطورت إلى كيان سياسي على يد خليفته عبد المؤمن بن علي الذي استطاع بسط نفوذ دولته على كامل المغرب الإسلامي وبلاد الأندلس، بعد مقاومته للإسبان والتصدي لزحفهم المستمر على الديار الإسلامية، وقد شهدت هذه الدولة العديد من النزاعات الداخلية والخارجية التي ساهمت في إسقاطها على يد المرينيين سنة 688 هـ/ 1269 م.

للمزيد من المعلومات على الموحدين راجع: البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974. وأيضا: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمانة، الدار البيضاء، 1979. وأيضا: ابن عذارى المراكشي، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 4، خاص بالموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت، محمد زنبر وعبد القادر زمانة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985. وأيضا: نظم الجمان لابن القطان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987. وأيضا: الاستقصاء للسلاوي الناصري، والقرطارس لابن أبي زرع الفاسي، وكتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة، الذيل والتكملة لابن الأبار، ونفح الطيب للمقري والمعجب للمراكشي.

([2]) ابن القطان ،نظم الجمان ،تح محمد علي مكي ،تطوان ،(د.ت) ،ص 34 .

([3]) ابن خلدون ،العبر ،ج6 ،ص 464 ،465 .

([4]) ابن خلكان ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،تح احسان عباس ،ج4 ،دار الثقافة ،بيروت ،(د.ت) ،ص 137 .

([5]) ابن أبي الزرع ،المصدر السابق ،ص 172.

([6]) ابن عذرى ،المصدر السابق ،ج4 ،ص 68 .

([7]) محمد عنان عبد الله، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني عصر الموحدين، ط 1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة ، 1964 ،ص 160 .

كان مولده بين سنتي 481هـ / 1088م ،485هـ/1092م ،عرف بحبه للعلم منذ صباه ،ولما قارب العشرين من عمره ارتحل إلى المشرق للأخذ عن علمائه على عادة أهل المغرب ،فكانت وجهته إلى الأندلس أين أخذ عن القاضي ابن حمدون والإمام المازري ،وفي الاسكندرية أخذ عن أبي بكر الطرطوشي ،وعن الامام أبي عبد الله الحضرمي بالشام ،وعن الكيا هراسي وأبي بكر الشاشي والمبارك بن عبد الجبار ببغداد ،كما أقام بمكة سنين طوال درس خلالها العلوم الشرعية.

أثرت هذه الرحلة كثيرا في شخصية ابن تومرت فأصبح شديد الانكار على الناس فيما يخالف الشرع ،ونذر نفسه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،فكانت بدايته من مكة التي أجبر على مغادرتها إلى مصر أين واصل نشاطه فكان مصيره أن طرد منها فقصد بلاد المغرب وكلما دخل مدينة طرد منها بسبب تشدده في تغيير المنكر ،حتى استقر بقرية ملالة قرب مدينة بجاية أين اجتمع بعبد المؤمن بن علي الكومي ما بين سنتي 511هـ و512هـ ،ومن هنا كانت بدية رحلته إلى المغرب الأقصى الذي ظهر به أمره ،وانتشر منه مذهبه. [1]

في المغرب الأقصى واصل المهدي بن تومرت ما كان يقوم به قبل دخوله إليه ،ومن ذلك قيامه ورفاقه بتغيير المنكر بالقوة ككسر آلات الطرب واللهو ،لكنه طرد منها بسبب الاستدلال بآراء الأشاعرة أثناء مناظرته لفقهائها ،وبمكناس فعل نفس الشيء لكن تصدى له العامة وأوجعوه ضربا ،فغادر نحو سلا ومنها إلى مراكش وأمير المرابطين يوم إذ علي بن يوسف بن تاشفين الذي كان قد تولى الحكم منذ أكثر من عشر سنوات ،وهو رجل تقي ورع لا يخلف فقهاء المذهب المالكي في رأي ،ولا يقطع أمر دون مشورتهم ،ولما بلغه خبر المهدي بن تومرت من أفعال اراقة الخمر وكسر آلات الطرب في أسواق المدينة وشوارعها ،أمر بإحضاره بين يديه ،ولما رأى حاله وما هو عليه من تقشف أشفق عليه ،خاصة بعدما أخبره أنه رجل فقير وليس بطالب للدنيا أنما هو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ،وإنما تلك من مهام السلطان ،لكن فقهاء علي بن يوسف أشاروا عليه بقتله أو سجنه لما أدركوه من خطره ،غير أنه أمر بطرده من المدينة بعدما استشفع له شخصان من حاشيته هما عمر بيانتان وسير بن وربيل . ومن مراكش لجأ ابن تومرت إلى ايجلي مسقط رأسه أين تزايد عدد أتباعه ،فقام بتنظيمهم وتجهيزهم بعدما بايعوه اماما عليهم سنة 515هـ/1121م ،ومنها بدأ بغزو المرابطين ،الذين وصفهم بالمجسمين

(1) عن رحلة المهدي بن تومرت إلى المشرق وعودته إلى بلاد المغرب ،وما حدث خلالها .ينظر: رشيد بورويبة ،ابن تومرت ،تر عبد الحميد حاجيات ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1982 ،ص ص 25 -52 .

الكفار وجهادهم فرض عين على كل قادر. لكن ابن تومرت توفي قبل أن يحقق هدفه ،وكان ذلك سنة 524هـ/1130م ،فخلفه عبد المؤمن بن علي الذي استطاع القضاء على دولة المرابطين .[1]

2- عقيدة ابن تومرت:

يمكن التعرف على عقيدة ابن تومرت ومذهبه من خلال مؤلفاته وهي مجموعة من الكتب والرسائل والخطب ،والتي يعد كتاب " أعز ما يطلب " ،والذي هو كما جاء في آخره: " سفر فيه جميع تعاليق الامام المعصوم المهدي المعلوم ﷺ مما أملاه سيدنا الامام الخليفة أبو محمد عبد المؤمن بن على أدام الله تأييدهم ،وأعز نصرهم ومكن سعودهم." ،وهو كتاب يمس العقيدة كما يمس التشريع والأخلاق[2] ،ويمكن اجمال العقيدة لدى ابن تومرت في أربعة أسس هي التوحيد ،ونظرية الاله والنبوة ،والقدر ،والإيمان بالمهدي [3]،وقد جمع فيها من أفكار المذاهب والفرق ما يخدم أفكاره وما بدأه ،وسمى أتباعه بالموحدين ،وليس المقصود بالتوحيد هنا ذلك الركن الأساسي في الإسلام وهو وحدانية الله تعالى وإنما - كما يرى قولد سيهر- هو الخضوع لحكومة الموحدين [4] ،فهو في التوحيد يسلك مسلك المعتزلة من حيث دلائل وجود الله ووحدانيته ،وهو مثلهم يرى أن ما ورد في القرآن الكريم من آيات دالة على التجسيم والتشبيه إنما هي مجرد كناية وتعبير مجازي ،وهو يدعو أتباعه إلى تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل تسبيه وتجسيم إذ يقول في ذلك: " واشتغلوا بتعليم التوحيد ،فإنه أساس دينكم ،حتى تنفوا عن الخالق التشبيه والتشريك والنقائص والآفات والحدود والجهات ،ولا تجعلوه في مكان ولا وجهة ،فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات ،فمن جعله في جهة أو مكان فقد جسمه ،ومن جسمه فقد جعله مخلوقا ،ومن جعله مخلوقا فهو كعابد وثن " ،وهو يصف المرابطين بالكفرة المجسمين منكري التوحيد الذين يجب جهادهم ،بل إن جهادهم أعظم من جهاد الروم وسائر الكفرة بأضعاف كثيرة.[5]

([1]) عن هذه الأحداث ينظر: البيدق ،المصدر السابق ،ص 22 وما يليها ؛ابن خلدون ،العبر ،ج6 ،في صفحات متفرقة ،المراكشي ؛المعجب ،ص 183 وما يليها ؛رشيد بورويبة ،المرجع السابق ،ص ص 47 وما يليها.

([2]) عن مؤلفات المهدي بن تومت وما تضمنته ينظر: عبد المجيد النجار ،المهدي بن تومرت أبو عبد الله محمد بن عبد الله المغربي الفاسي ،ط1 ،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ،1983 ،ص ص 145-157 .

([3]) عن مؤلفات المهدي بن تومرت وما احتوته ينظر: عبد المجيد النجار ،المرجع السابق ،ص ص ؛رشيد بورويبة ،المرجع السابق ص ص 97- 115 ؛محمد عبد الله عنان ،المرجع السابق ص ص 199-218 .

([4]) Goldziher ,Introduction au livre de Mohammed Ibn Tumart ,publié par D.Luciani ,Fantana ,Alger ,1903 ,p70.

([5]) Lévi Provençal ,Documents inédits d'histoire Almohade ,Paris ;1928 ,p 9.

،ونجده من جهة أخرى يخالفهم الرأي في مسألة القضاء والقدر ،بينما يرى المعتزلة أن الانسان هو حر في أفعاله ،يرى ابن تومرت أن هذا الانسان مسير وكل أفعاله بقدر الله سبحانه الذي لا يخرج شيء عن تقديره.[1]

ونجذه يخالف الأشاعرة في قولهم أن صفات الله الأزلية متصلة بذاته ،كما يخالف أهل السنة في قولهم بأنها صفات منفصلة عن ذاته سبحانه ،إذ يرى أن أسما الله الحسنى لا تعدو أن تكون مجرد نعوت الغرض منها تأكيد وحدانية الله سبحانه وتعالى[2] ،بينما نجده يتفق معهم أي الأشاعرة في رؤية الله سبحانه يوم القيامة [3]. ونجده يتفق مع أهل السنة فيما يتعلق بالنبوة ،ومن أن القرآن الكريم من معجزات الرسول ﷺ نزل به الروح الأمين بلسان عربي مبين.[4]

وعقيدته في المهدوية والإمامة والعصمة على عقيدة الشيعة فهو أن المهدي إمام وهو معصوم لا يجوز عليه الخطأ،وطاعته واجبة ،ومن شك فيه فهو كافر ،ومن خرج عنه وجب قتله.[5]

وفيما يخص التشريع فإن المهدي بن تومرت يأخذ بالمذهب الظاهري - الذي لم يعترف به رسميا في دولة الموحدين إلا على عهد الخليفة يعقوب المنصور أي بعد وفاة المهدي بن تومرت بحوالي ستين عاما[6] – فهو يبطل الرأي والظن في التشريع ،ويدعوا إلى استعمال الأصول مباشرة ،ونبذ الاقتصار على كتب الفروع ،وإبطال المذاهب الفقهية لما فيه من اختلاف في المسائل الشرعية ،ويرى أن المجتهين الذين ألفوا كتب الفقه ليسوا من علماء الاسلام الحقيقي.[7] .

وقد فرض ابن تومرت وخلفاؤه من هذا المذهب على سائر الموحدين ،فكلهم –علماء وعامة- مطالبين بمعرفته ،وهو يتفق هنا مع المعتزلة والأشاعرة ،ويختلف مع أستاذه المزعزم –على حد تعبير جولدسيهر- أبو حامد الغزالي الذي يرى عدم تلقين العامة ما لا يتناسب مع مستواها الفكري وتركها على عقيدة السلف ،وعدم التشويش على إيمانها بإطلاعها على آراء المبتدعة ،وإلقائها في المجادلات التي

([1]) عن موضوع القضاء والقدر في عقيدة الموحدي ينظر: المهدي بن تومرت ،أعز ما يطلب ،تح لوسياني ،الجزائر ،1903 ،ص 236 .

([2]) نفس المصدر ،ص 235 .

([3]) نفسه ،ص 237 ،238.

([4]) أعز ما يطلب ،ص 238 ،239 ؛رشيد بورويبة ،المرجع السابق ،ص 103 .

([5]) عن فكرة المهدوية ،والامامة والعصمة ،ينظر: رشيد بورويبة ،المرجع السابق ،ص ص 104-107 ؛محمد عبد الله عنان ،المرجع السابق ،ص ص 104-110 .

([6]) محمد المنوني ،حضارة الموحدين ،ط1 ،دار توبقال ،الدار البيضاء ،1989 ،ص 13 ؛محمد عبد الله عنان ،ص 203 .

([7]) عن هذا الموضوع ينظر: المهدي بن تومرت ،المصدر السابق ،ص 25؛ Goldziher op.cit p 40 .

يصعب تفهمها. [1] ،وعلى نهج المهدي بن تومرت سار خلفاؤه الذين لم يتوانوا في تعظيمه والتبرك بقبره ،ومن ذلك أنهم كانوا يذكرونه في بداية رسائلهم بعد حمد الله والصلاة على رسوله ،ومن ذلك: " ... أما بعد فالحمد لله المولى الراغب ومسني الآمال والمطالب ،وقابل توبة التائب ،نحمده بما يتعين من حمده الواجب ،ونصلي على محمد نبيه العاقب ،وعلى آله وصحبه أولي المفاخر السنية والمناقب ،نصل الرضى عن الامام المعصوم ،المهدي المعلوم ،المحرز شرف المبادئ والعواقب ،المجلي بنوره الثاقب حجب الظلام الواقب...". [2]

ثانيا:مكانة الفقهاء على عهد المرابطين:

نشأت دولة المرابطين على اساس فكرة اصلاحية دينية تدعو إلى التمسك بالدين الصحيح الذي يستمد تعاليمه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[3] ،لذلك تميز المجتمع المرابطي بالتمسك بمعتقد أهل السنة ونبذ كل ما يخالف ذلك من علم الكلام ،حتى اعتبر الخوض فيه بدعة ،وشدد أمراؤها على كل من يخوض فيه أو وجدوا كتبه عنده لدرجة أنهم أحرقوا كتب أبي حامد الغزالي ،وأهدروا دم من وجد عنده شيء منها على حد تعبير صاحب المعجب. [4] وقد كان للفقهاء دور كبير في اصدار الأمير المربطي علي بن يوسف بن تاشفين لأمر احراق كتاب احياء علوم الدين ،ومن ذلك الفتوى التي أصدرها الفقيه ابن حمدين قاضي قرطبة في هذا الشأن. [5]

([1]) من جملة ذلك أن المهدي ألف لأتباعه كتابا باللسان البربري سماه "كتاب التوحيد" يضم سبعة أجزاء ،وقد فرضه عليهم يقرؤون كل يوم منه حزبا بعد صلاة الصبح ،ومن لم يلتزم منهم بذلك أعتبر كافرا لا تجوز امامته ولا تأكل ذبيحته ،يقول ابن أبي الزرع: " حتى صار كتاب التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز " ينظر في ذلك: الأنيس المطرب ،ص 177 ؛ابن القطان ،المرجع السابق ،ص 46 ؛رشيد بورويبة ،المرجع السابق ،ص 115 .

([2]) عن هذه الرسائل ينظر: ليفي بروفنسال ،مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المؤمنية ،مطبعة العلوم العليا المغربية ،الرباط ،1941 .

([3]) حكيم باشا ،القاضي عياض وجهوده العقدية ،مذكرة ماجستير ،قسم العقائد والأديان ،جامعة الجزائر ،2010/2009 ،ص 16 .

([4]) عن نبذ المرابطين لعلم الكلام والفلسفة ومواقفهم من ذلك بالتفصيل .ينظر: المعجب ،ص 236 ،237 .

([5]) أسامة عبد الحميد حسين ،دور الفقهاء في السياسة المرابطية وإحراق كتاب إحياء علوم الدين ،مجلة سمراء ،مج1 ،ع1 ،العراق ،2005 ،ص 12 .

وقد كان لفقهاء المالكية مكانة خاصة لدى أمراء المرابطين، لا يقطعون أمر دون مشورتهم ،حتى أصبح لهم بالغ التأثير في شؤون البلاد السياسية ،وكان الولاة كذلك لا يقطعون أمرا إلا بحضور الفقهاء الذين علت منزلتهم وانصرفت وجوه الناس إليهم.[1]

فتحول بذلك الفقهاء عن مهمتهم الأساسية المتمثلة في القضاء والوعظ والتدريس إلى مسيرين للدولة ،يخططون لسياستها ،ويتحملون مسؤولية حماية كيانها[2] ،حتى أمسكوا بأيديهم الجانب الديني والسياسي من أمور الدولة.[3]

وقد تكرست سيطرة الفقهاء على الحياة السياسية في دولة المرابطين بصورة واضحة وجلية على عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ،الذي كان شديد التأثر بهم رغم اتصافه بالعدل ،والتقوى والورع ،إذ التزم بأقوالهم وآرائهم الفقهية.[4] يقول المراكشي في ذلك: " كان لا يقطع أمرا في جميع أمور مملكته دون مشاورة ،الفقهاء ،فكان إذا ولى أحدا قضاته ،كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمرا ولا يبت حكمة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ،فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما...."[5].

وقد اهتم فقهاء المالكية خلال هذا العصر على كتب الفروع وهي مرجعهم الوحيد والذي تبناه الأمير علي بن يوسف الذي يكن يقرب إليه ويحظى عنده بالمنزلة إلا من علم بعلم الفروع ،أعني فروع مذهب مالك فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب ،وعمل بمقتضاها ،ونبذ ما سواها ،وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله.[6]

ثالثا: دوافع وخلفيات اضطهاد الموحدين لفقهاء المالكية.

1- الدوافع:

يعتبر الاختلاف المذهبي الدافع الرئيسي والأساسي لمحاربة الخلفاء الموحدين لفقهاء المالكية واضطهادهم ،وذلك أن الموحدين ومنذ ظهور المهدي بن تومرت رأوا أن المرابطين خارجين عن الدين

([1]) عن ايثار أمراء المرابطين للفقهاء ،والمكانة التي تبوؤوها ينظر: الأنيس المطرب ،ص 38 ؛وفايات الأعيان ،ج7 ،ص 125 ؛المعجب ،ص 235 .

([2]) أسامة عبد الحميد حسين ،المرجع السابق ،ص 14 .

([3]) سعد زغلول عبد الحميد ،محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ،جامعة بيروت العربية ،بيروت ،1973 ،ص 14.

([4]) أحمد شلبي ،التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ،ط2 ،ج4 ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ،1966 ،ص 183.

([5]) المعجب ،ص 171 .

([6]) نفسه ،الصفحة نفسها .

،ووصفوهم بالمجسمين الكفرة الذين يجب جهادهم ،بل إن المهدي بن تومرت رأى أن جهادهم أعظم من جهاد الروم وسائر الكفار بأضعاف كثيرة .كما كان يرى منكرين للتوحيد معاندين للحق ،وأن آراءهم باطلة [1] مستندا في ذلك على قول الله سبحانه: ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتعبون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ،والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا.**﴾ [2] ،كما نجد خليفة المهدي بن تومرت يسير على نهج معلمه في هذا الاتجاه ويصف المرابطين هو الآخر بالمجسمين.[3] في حين اعتبر المرابطون الموحدون وحركتهم فرقة ضالة مارقة عن الدين.[4]

كما اتهم المهدي بن تومرت فقهاء المرابطين بالتقاعس عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وهذا ما كان هو يقوم به في بداية أمره ،ورد عليه فقهاء المالكية بأن هذا الأمر تعدي على صلاحيات الحاكم ،ثم إن لذلك شروط يجب التقي دبها من أهما العلم بالمنكر ومظنة القدرة على تغييره ،وأن لا يؤدي انكاره إلى منكر أكبر منه.[5]

ومن الدوافع التي دفعت بالموحدين إلى اضطهاد فقهاء المالكية محاربتهم ،هو أن هؤلاء كانوا في نظرهم سببا في الابتعاد عن الأصول وهم القرآن والسنة ،ثم الاجماع نظرا لاهتمامهم بكتب الفروع ،لذلك كثيرا ما كانت رسائل الخلفاء الموحدين تدعوا إلى ترك العمل بكتب الفروع ،والتمسك بالقرآن الكريم والسنة ،ومن ذلك الرسالة التي بعث بها المنصور الموحدي إلى رعاياه يأمرهم فيها بأخذ حقيقة دينهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.[6]

ومن مظاهر محاربة خلفاء الموحدين للمذهب المالكي واضطهاد فقهائه نذكر:

- إقدام الخليفة المنصور على احراق كتب المذهب المالكي بعد جرد ما فيها من آيات وأحاديث ،فكان من جملة ما أحرق مدونة سحنون ،وكتاب التهذيب للبرادعي ومختصره ،وواضحة ابن حبيب

([1]) أعز ما يطلب ،ص 233 .

([2]) الآية 5 من سورة طه .

([3]) أحمد عزاوي ،رسائل موحدية مجموعة جديد ،ط1 ،منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقنيطر ،المغرب ،2001 ،ص 13.

([4]) نفسه ،ص 25 .

([5]) لخضر محمد بولطيف ،فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في المغرب الاسلامي ،المعهد العالمي للفكر الاسلامي ،2009 ،ص 88، 89 .

([6]) أحمد عزاوي ،رسائل موحدية ،ص 42 .

،ويذكر المراكشي أن فكرة الحرق هاته لم تكن فكرة المنصور بل كانت فكرة أبيه يوسف وجده عبد المؤمن بن علي [1] ،ويذهب السلاوي إلى أبعد من ذلك حين يذكر أن عبد المؤمن بن علي أول من أمر بإحراق كتب المذهب المالكي [2] ،ويذكر محمد المنوني بأن فكرة الحرق هاته كانت بأمر من عبد المؤمن بن علي قبل أن يتراجع عنه لأن أوانها لم يحن بعد ،وأن مبدأ هذا الأمر كان منذ عهد ابن تومرت. [3]

- التضييق على فقهاء المالكية بمنعهم من التأليف واالتدريس ،وتهديهم وتوعدهم بالعقاب الشديد ان هم خاضوا في علم الرأي ،إذ يذكر المراكشي أنه في عهد المنصور انقطع علم الرأي وخافه الفقهاء. [4] ويذكر ابن فرحون أن أبا الحسن زرقون قد أوذي كثيرا من قبل بني عبد المؤمن لما أبطلوا القياس وألزموا الناس بالأثر والظاهر. [5]

- سجن الفقهاء والتقليل من شأنهم كما حدث مع قاضي تلمسان الفقيه أبا عمرو عثمان ابن صاحب الصلاة ،وقاضي سبتة أبي الفضل عياض السبتي اليحصبي ،أو تغريبهم وتهجيرهم كما حدث مع الفقيه أبي العباس الأقليشي الداني (توفى سنة 550هـ/1155م) ،والفقيهين أبي الحسن يعيش البلنسي (توفي سنة 549هـ/1154م) وأبي اتلوليد بن خيرة القرطبي (توفى سنة 551هـ/1156م). [6]

2- الخلفيات:

أقصد بالخلفيات هنا الدوافع الحقيقة الخفية وغير المعلنة التي دفعت بالمهدي بن تومرت وخلفائه من بعده من آل عبد المؤمن إلى محاربة المذهب المالكي واضطهاد فقهائه والتي من بينها:

- إن المهدي بن تومرت كان طالب سلطة يسعى إلى حكم بلاد المغرب ونستنتج ذلك من خلال ما ورد في قصة لقائه بالشيخ أبي حامد الغزالي لما دعا بحرق ملك المرابطين وتشتت دولتهم فرد عليه ابن تومرت على يدي انشاء الله [7]،كما أنه حين استدعاه أمير المرابطين وسأله عن أمره رد بأنه ليس طالب طالب دنيا ولم تكن له الجرأة على مواجهة السلطان ،وكان كثيرا ما يظهر الجنون إذا خشي البطش به

([1]) المعجب ،ص ص 354-356 .

([2]) الاستقصا ،ج2 ،ص 112.

([3]) محمد المنوني ،العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ،مطبعة المهدية ،تطوان ،المغرب ،1950 ،ص 53 .

([4]) المراكشي ،المعجب ،ص 354 .

([5]) ابن فرحون ،الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ،تح مأمون بن محي الدين الجنان ،ط1 ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،1996 ،ص 280 .

([6]) عن معاناة فقهاء المالكية على عهد الموحدين ينظر: لخضر بولطيف ،المرجع السابق ،ص ص 134-183 .

([7]) رشيد بورويبة ،المرجع السابق ،ص 29 .

[1]،كما أن المهدي بن تومرت ورغم غزارة علمه فإنه لم يرق إلى مصاف كبار الفقهاء فقد كان فقهيا متوسط العلم [2] ،وإنه لم يأتي بالجديد في مذهبه بل جمع فيه آراء وأفكار وتوجهات المذاهب والفرق السابقة.

وما يدل على أنه كان طالب سلطة كذلك تصفيته لكل من خالفه الرأي أو اعترض على تصرفاته مثل قتله لأحد مقربيه ويدعى الفقيه الافريقي لما أنكر عليه غدره بإحدى القبائل عارضته بتنمل[3] ،وتبقى تصفيته للعديد من أتباعه لما خشي غدرهم به في الحادثة المشهورة بحادثة التميز ،والحيلة التي استعملها بأن أمر أحد أصحابه ويدعى البشير أبو عبد الله الونشريسي بأن يتظاهر بالجنون حتى أصبح ذات يوم والبشير هذا حسن الثياب طيب الريح يجلس إلى جانب المحراب ،فسأله المهدي بن تومرت من يكون فقال له: أنا الونشريسي ،فقال المهدي إن أمرك لعجب ودعا الناس ليتحققوا من ذلك ،ثم قال الونشريسي: إنه أتاني الليلة ملاك من السماء فغسل قلبي وعلمني الله القرآن والموطأ وغيره من العلوم والحديث ،فبكى المهدي وامتحنه فيما قال فاستعظمه الناس ،ثم قال: إن الله تعالى قد أعطاني نورا أعرف به أهل الحنة من أهل النار ،وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة ،وقد أنزل الله ملائكة إلى البئر التي في المكان الفلاني ،يشهدون بصدقي ،فسار المهدي والنا س معه يبكون إلى البئر ،ووقف عندها وقال يا ملائكة الله ،إن أبا عبد الله الونشريسي قد زعم كذا وكذا ،فقال من بالبئر: صدق ،وكان المهدي قد وضع فيها رجالا يشهدون بذلك ،فلما قيل ذلك من البئر قال المهدي: إن هذه البئر مطهرة مقدسة قد نزل بها الملائكة والمصلحة أن تردم لئلا تقع فيه نجاسة أو ما لا يجوز ،ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان ،فحضروا التميز ،وكان الونشريسي يعمد إلى الرجل الذي يخاف جانبه فيقول: هذا من أهل النار فيلقى من الجبل مقتولا ،وإلى الشاب الغر ومن لا يخشى فيفول: هذا من أهل الجنة فيترك على يمينه حتى بلغ عدد القتلى سبعين ألفا ،وبذلك أمن على نفسه وأصحابه ،واستقام أمره. [4] ،ومن جملة ما ابتكر المهدي بن تومرت أن مشى على الماء لما رمي في البحر وهو على ظهر السفينة عائدا من المشرق. [5]

([1]) البيدق ،المصدر السابق ،ص 22.

([2]) حسين مؤنس ،تاريخ المغرب وحضارته ،ج2 ،مطبعة العصر الحديث ،بيروت ،1992 ،ص 85 ؛عبد المجيد النجار ،المرجع السابق ،ص 283 .

([3]) لخضر بولطيف ،المرجع السابق ،ص 94.

([4]) البيدق ،المصدر السابق ،ص 71 ،72 .

([5]) المراكشي ،المعجب ،ص 179 .

- توظيف النصوص الدينية لإيجاد مبررات شرعية للثورة على المرابطين ومن ذلك ايراد الأحاديث النبوية التي تنبأ بفساد الزمان ،ومناقب أهل المغرب ،وظهور المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ،ويظهر أنه هو المقصود بالمهدي ،بعدما ادعى النسب الشريف -لآل البيت- ،وتلقب باسم أبي عبد الله محمد بن عبد الله على اسم رسول الله ﷺ.[1]
- اعتماد العصبية القبلية في تأليب قبائل الموحدين ضد المرابطين إذ وصفهم اتلمهدي بن تومرت باللمتونيين الملثمين ،والبرابرة المفسدين الذين يطعنون في المهدي من أجل ابعاد الناس عنه.[2]
- استئثار عبد المؤمن بن على بالحكم دون جماعة الموحدين وجعل الخلافة وراثية في بنيه ،واستعماله للقوة والبطش بمن ثاروا ضده خاصة قبائلا و أشخاصا.[3]
- خشية خلفاء الموحدين من المكانة التي كان يحظى بها فقهاء المذهب المالكي وسط العامة ،وما قد ينجر عنها من تأليب الرعية ضدهم ،وإنه لأدل على ذلك أن هؤلاء الخلفاء قد ولو فقهاء المالكية الذين أمنوا جانبهم وظائف سامية في الدولة ،ومن بينهم عبد الحق بن محمد الأنصاري الذي تولى قضاء غرناطو واشبيلية ،ثم مراكش[4] ،وكذلك عمارة بن يحيى الشريف الذي ولي قضاء بجاية[5] ،وامتد خوف الخلفاء الموحدين من زوال ملكهم إلى فقهاء الموحدين ،حيث نجد الخليفة المنصور يقر ببطلان العقيدة التومرتية لكنه لم يجهر بهذا خوفا من انقلاب فقهاء الموحدين عليه.[6]

الخاتمة:

بعد هذه الدراسة نخلص إلى النتائج التالية:

- تأسست دولة المرابطين على أساس فكرة دينية اصلاحية تدعو إلى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ على المذهب المالكي ،لكن فقهاء المرابطين أولوا كل عنايتهم لكتب الفروع مثل مدونة سحنون وتهذيب البرادعي ،وواضحة ابن حبيب ،ثم إنه منعوا الاشتغال بكل ما يخالف توجهاتهم ،وهذا ما يؤدي

([1]) عن المزيد من عمل المهدي للوصول إلى السلطة ينظر: لخضر بولطيف ،المرجع السابق ،ص ص 92-98 .

([2])أحمد عزاوي ،رسائل موحدية ،ص 13.

([3]) عن البطش بالثائرين من القبائل على الموحدين ينظر: محمد عبد الله عنان ،المرجع السابق ،ص ص 265 وما بعدها .

([4]) الذهبي المستملح من كتاب التكملة ،تح بشار عواد معروف ،دار الغرب الاسلامي ،تونس ،2008 ،ص 283 .

([5]) أبو العباس الغبريني ،عنوان الدراية فيم عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ،تح عادل نويهض ،دار الآفاق الجديدة ،بيروت ،1979 ،ص 45 .

([6]) أحمد عزاوي ،رسائل موحدية ،ص 22 .

إلى الركود الثقافي ،ويكبت روح البحث والاجتهاد ،فحين كان المشرق الاسلامي يعج بعديد المفكرين والمصلحين الذين أعطوا الحركة الثقافية والفكرية ناشطا وحيوية فتعددت المؤلفات وتنوعت.

– والعكس حصل في دولة المرابطين الذين اعتنقوا المذهب الظاهري ،وشجعوا العلماء على الاجتهاد والبحث ،ونبذ التقليد والتعصب للمذهب ،ولكنهم رغم هذا أجبروا الناس على الأخذ بالمذهب الظاهري ،وكثيرا ما كان خلفائهم يحضرون المناظرات العلمية بين فقهاء المذهب الظاهري وفقهاء المالكية فينصرون الفريق الأول على الفريق الثاني.

– لم يأت ابن تومرت بمذهب جديد ،وإنما أخذ من جميع المذاهب والفرق ما يخدم مصالحه وطموحه ،رغم أن الغالب عليه أنه كان ظاهري المذهب في الجانب الفقهي ،شيعي في القول بالإمامة والعصمة.

– اضطهاد الموحدين لفقهاء المالكية لم يكن بسبب الاختلاف المذهبي فحسب ،وإنما كان كذلك من أجل التمكين لدولتهم ثم الحفاظ على بقائها ،وذلك ما نلمسه من حلال توظيفهم للعديد من فقهاء المالكية الذين لم يخشوا جانبهم.

– استغلال المهدي بن تومرت لسذاجة قبائل الجبلية وجهلهم لشؤون دينهم من أجل بث فكرته بينهم ترسيخها في عقولهم وقلوبهم ،ومن ثم سهل علية تكوين أتباع كثر مستعدين للموت من أجل مبادئهم ،وذلك عن طريق ادعاء النسب الشريف ،ونسج الأساطير حول حياته ،ومنها أنه مشى على الماء ،وحادثة التمييز التي قضى بها على من يشكلون خطرا على دعوته.

– استعمال الموحدين منذ بداية حركتهم للقوة في اسكات معارضيهم حتى ولو كانوا من اتباعهم والموالين لهم.

– اتفاق فقهاء المالكية وفقهاء الموحدين الظاهرية على جهاد النصارى اثر حروب الاسترداد ،ودورهم الكبير في شحذ الهمم ،وبناء الأربطة والحصون ،ومشاركتهم في الجهاد جنبا إلى جنب.